عدنية شبلي*

التشويه الإعلامي الإسرائيلي لصورة الأمهات الفلسطينيات خلال الانتفاضة الثانية**

تتناول هذه المقالة التغطية الإعلامية الإسرائيلية، وخصوصاً "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" (IBA)، للاعتداءات الإسرائيلية على الضفة الغربية وقطاع غزة، والتي أدت دوراً مركزياً في إحداث توافق داخل المجتمع الإسرائيلي، إزاء "تعذّر اجتناب" قتل الأطفال الفلسطينيين على يد الجيش الإسرائيلي، ووضع الملامة على الأمهات الفلسطينيات، وتأخذ مثلاً لهذه التغطية القتل المأسوي للطفل محمد الدرّة.

تأتي عملية إرسال التقارير الصحافية من المناطق التي تشهد أعمالاً حربية، أو من المناطق التي ترزح تحت احتلال عسكري، في صلب دور الإعلام، ومع ذلك، فإن تغطية الأحداث المرتبطة بمثل هذه المناطق، أو تغطية حوادث مرتبطة بالعنف السياسي إجمالاً، يكون لهما نتائج تتخطى دور التغطية المجردة. وينقل الباحث الإعلامي روبن براون، عن كارل فون كلاوسيتز في كتابه "نظرة إلى الحرب" قوله، إن العلاقة بين الحكومة والجيش ووسائل الإعلام تشابكت بشكل متزايد جرّاء تغييرات سياسية وتقنية. واستناداً إلى براون، فإن السياسات في الديمقراطيات الحالية يتم إدارتها بشكل رئيسي عبر وسائل الإعلام، وبالتالي، فإن السياسيين أصبحوا أكثر مراعاة للتغطية الإعلامية للحرب، وهم بصورة خاصة، يلجأون إلى الإعلام لحشد تأييد الرأي العام للحروب التي يخوضونها. لقد أصبحت وسائل الإعلام اليوم أداة لحشد التوجه السياسي للرأي العام، وبالتالي أصبح لديها قدرة أكبر في التأثير في قرارته الانتخابية، ولم تعد العلاقة بين وسائل الإعلام

* روائية وكاتبة فلسطينية.

** مقالة خاصة بالمجلة بعنوان: *The Making of Bad Palestinian Mothers: Media Discourses on the Killing of Palestinian Children by the Israeli Army during the Second Intifada.*
ترجمة: صلاح تقي الدين.

والمؤسسة العسكرية محصورة بكيفية نقل تطورات الحرب إلى الرأي العام فحسب، بل أصبح للإعلام أيضاً تأثير فيما إذا كان يجب خوض الحرب، وما هو السبيل إلى ذلك، من خلال قدرته على الترويج لاستمرار الإجماع على شرعية نزاع معين، وشرعية أولئك الذين دعوا إلى خوض هذا النزاع.[1]

وهذه الورقة تبحث في كيف أن التغطية الإعلامية الإسرائيلية، وخصوصاً من "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" (IBA)، وبمساعدة أجهزة الدولة، أدت دوراً رئيسياً في خلق واستمرار الإجماع ضمن المجتمع الإسرائيلي فيما يتعلق بحتمية قتل الأطفال الفلسطينيين على يد الجيش الإسرائيلي خلال مسار احتلاله للضفة الغربية وغزة.

وتُظهر الحقائق أنه خلال عدوان "الجرف الصامد" على قطاع غزة في تموز / يوليو ٢٠١٤، استشهد أكثر من ٢٠٠٠ فلسطيني ثلثهم من الأطفال، إلاّ إن منهجية قتل الأطفال خلال مثل هذه الهجمات كانت قد بدأت فعلياً في سنة ٢٠٠٠ مع بدء الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

ومن خلال تحليل التغطية الإعلامية لقتل الطفل محمد الدرّة على يد الجيش الإسرائيلي مع بدء الانتفاضة الثانية، تابعتُ كيف ساهمت "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" في الترويج للخطاب الرسمي الإسرائيلي بشأن الحادثة، فهي لم تقدّم تبريراً لقتل الدرّة فحسب، بل لقتل مزيد من الأطفال الفلسطينيين على يد الجيش الإسرائيلي في المستقبل أيضاً. وأكثر من ذلك، فإنها نجحت في نقل الملامة على مثل هذه الأحداث إلى الأهالي الفلسطينيين، وخصوصاً الأمهات الفلسطينيات. وهذا الخطاب الذي يلوم الفلسطينيين على استشهاد أطفالهم، تبنّاه بعض شبكات الإعلام العالمية التي أثّرت في الرأي العام العالمي فيما يتعلق باستمرار العدوان الإسرائيلي المتواصل على الأطفال الفلسطينيين.

I ـ الانتفاضة الثانية وقتل محمد الدرّة

نشبت الانتفاضة الفلسطينية الثانية عقب الزيارة التي قام بها أريئيل شارون زعيم حزب "الليكود" آنذاك، برفقة ٢٠٠ شرطي إسرائيلي تقريباً، للحرم الشريف (المسجد الأقصى)، في ٢٨ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٠، إذ استفزت هذه الزيارة المصلّين الفلسطينيين الذين ردّوا بتظاهرة عفوية في يوم الزيارة، ثم في اليوم التالي عقب صلاة الجمعة. وهذه التظاهرة أطلقت شرارة تظاهرات مماثلة في جميع أنحاء فلسطين، شاركت فيها مجموعات سكانية من جميع المناطق ومختلف الفئات العمرية والانتماءات السياسية. وخلال الشهر الأول من هذه التظاهرات، أدى إطلاق النار من طرف الشرطة والجيش الإسرائيليين إلى استشهاد ما يعادل عشرة فلسطينيين، وجرح العشرات الآخرين يومياً. والذين استشهدوا أو أصيبوا بجروح كانوا، في معظمهم، من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والسادسة والعشرين، وقد استشهد العديد من الأطفال أيضاً،[2] غير أن حادثة واحدة بصورة خاصة، دفعت الفلسطينيين إلى الشوارع في الأسابيع الأولى من الانتفاضة، وتلك كانت حادثة استشهاد الطفل الفلسطيني محمد الدرّة، والتي نقلتها الكاميرات مباشرة.

ففي ٣٠ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٠ الذي صادف اليوم الثاني من التظاهرات عقب زيارة شارون للأقصى، نقلت كاميرا فريق تلفزيوني تابع لشبكة "فرانس ٢" الفرنسية،

صورة جمال الدرّة، وهو برفقة ابنه محمد البالغ من العمر ١٢ عاماً، بالقرب من تقاطع نيتساريم في غزة، وهما يحاولان الاحتماء من الرصاص الذي كان يُطلَق في اتجاههما. والمشهد الذي استغرق أكثر من ساعة ونصف، بيّن إطلاق الرصاص على الصبي الذي استشهد على الفور، وعلى والده الذي تعرّض لعدة إصابات معظمها في يده التي كان يلوّح بها في اتجاه مَن كان يعتقد أنه مصدر إطلاق الرصاص. وبدا في المشهد أيضاً استشهاد سائق سيارة إسعاف كان يحاول تقديم المساعدة.

لم يكن تصوير المشهد مسبوقاً على الرغم من أنه جرى من قبلُ تصوير استشهاد العديد من الأطفال الفلسطينيين بنيران إسرائيلية. وعرضت شبكات تلفزيون عالمية مقاطع من المشهد المصوّر الذي حظي بتعاطف ليس من الفلسطينيين وحدهم، بل من المشاهدين في جميع أنحاء العالم أيضاً. وجاءت ردات فعل العديد من السياسيين علناً، بمَن فيهم بيل كلينتون، الرئيس الأميركي آنذاك، الذي قال بعد يومين، وتحديداً في ٢ تشرين الأول / أكتوبر: "ظللت أتساءل عمّا إذا كان في إمكان هذا الأب أن يقوم بأي شيء لحماية الطفل.. إنه شيء يفطر القلب، مشاهدة طفل يعلق في تبادل لإطلاق النار مثل الذي حدث" (أخبار "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية").

في البداية، سارع الناطقان باسم الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي إلى نفي أي مسؤولية عن الجريمة، زاعمَين أن الدرّة قُتل في أثناء تبادل إطلاق نار، وليس برصاص إسرائيلي. غير أنه بعد عدة أيام، اعترف مسؤولون إسرائيليون أن الجنود الإسرائيليين ربما يكونون "على الأرجح" أطلقوا الرصاصات التي قتلت الدرّة.

والقراءة عن كثب للتغطية الإعلامية والإدارة الرسمية الإسرائيلية للحادثة، تلقي الضوء على كيفية محاولة الحكومة الإسرائيلية، من خلال هذه الحادثة، تحوير الروايات المتعلقة بقتل الأطفال الفلسطينيين، والتلميح إلى مسؤولية الأمهات الفلسطينيات في دفع أولادهن إلى الموت.

II ـ التغطية الإعلامية الإسرائيلية لقتل الدرّة

يتناول هذا القسم كيفية اعتماد "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" تقنيات استطرادية كي تشرح للجمهور الإسرائيلي المقطع الذي بثّته شبكة "فرانس ٢". فكما يظهر من المراجعة اليومية للتغطية الإعلامية، فإن الهيئة واجهت صعوبات في دمج المقطع في تغطيتها الإعلامية، أو في الاعتماد كلياً على التعليقات التي اعتمدها وعمّمها الجيش الإسرائيلي.

٣٠ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٠: في اليوم الذي استشهد الدرّة وصوّرت شبكة "فرانس ٢" العملية، مرّ الخبر في النشرة الرئيسية المسائية لـ "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" بشكل عابر. فبعد إعلان أن "الفلسطينيين يزعمون مقتل ١١ شخصاً"، جرّاء مواجهات بين متظاهرين فلسطينيين والجيش الإسرائيلي، استمر التقرير الذي أظهر ضابطاً رفيعاً في الجيش الإسرائيلي وهو يقول: "الطفل الذي قُتل لم يمت نتيجة إطلاق الرصاص من الجنود الإسرائيليين." ولم يتم عرض المقطع المصوّر عن مقتل الدرّة، كما لم يتم إعلان هوية "الطفل" المذكور، ولم

توفّر أي معلومات عنه. وبعد ذلك تحولت التغطية إلى الأخبار المحلية.

والإشارة الهامشية إلى حادثة الدرّة، تعني أن الإعلام الإسرائيلي حاول تجاهلها، في محاولة لتلطيف ما قام به الجنود الإسرائيليون، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان استراتيجيا التواصل المبنية على قاعدة "التفاعل الوجهي" المذكور في "تحليل الخطاب النقدي"، والذي يُستخدم عادة من أجل تأكيد ودراسة سمات الوجه في جميع التفاعلات التواصلية.

واستناداً إلى فان دايك [الباحث الهولندي الخبير في تحليل الخطاب النقدي]، فإن الهدف الرئيسي لـ "التفاعل الوجهي"، أو "الوجه التفاوضي"، هو إدارة وإعادة إنتاج النخبة والمجموعة المهيمنة، من خلال تقديم "الذات" بطريقة إيجابية. ومن ضمن هذه الاستراتيجيا، يجري التركيز على السمات الإيجابية الذاتية، بينما يتم ترحيل السمات السلبية وتجاهلها.[٣] علاوة على ذلك، تُعتمد آليات لتجنّب الاعتراف بمسؤولية الشخص عن المشكلات، بينما يصار إلى إلقاء اللوم على الضحية على ما تعرّضت له.[٤]

ومن ضمن الاستراتيجيا، فإن على التقرير أيضاً أن يخاطب المشاهدين الذين ربما يكونون شاهدوا المقطع المصوّر الذي بثته شبكة "فرانس ٢"، أو شبكة تلفزيونية أُخرى. وقد أدى التقرير هذا الدور من خلال تضمينه شهادة من ضابط رفيع في الجيش الإسرائيلي قام بدور المصدر الموثوق به، بنفي مسؤولية الجيش الإسرائيلي. وفي الوقت نفسه، فإن "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية"، من خلال عدم بث المقطع الذي صوّرته "فرانس ٢"، تجنّبت المشاركة في مزيد من الترويج للمقطع.

١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠:
قبل نهاية نشرة أخبار "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية"، وقبل التقرير الخاص بالألعاب الأولمبية التي تستضيفها مدينة سيدني الأسترالية، عُرض تقرير إخباري عن استشهاد الدرّة، بدأ بالمقطع الذي صوّرته "فرانس ٢"، وصاحبه تعليق المراسل الذي أعلن أن شبكات التلفزة العالمية لم تتوقف عن إعادة بث هذه الصورة القاسية. ويتابع المراسل بصوته: :"اسمه محمود (عوضاً عن محمد) الدرّة، ويقولون إنه شهيد جديد. لقد انضم أمس إلى تظاهرة فلسطينية عنيفة، وجاء والده لاحقاً ليأخذه كي لا يتعرّض للإصابة." تبع كلام المراسل صور عن جنازة الدرّة، ثم عن والدته التي تقول أنها لا تستطيع أن تصدّق؛ بالأمس فقط كان في حضنها. ويظهر بعد الوالدة مسؤول في الجيش الإسرائيلي وهو يقول أنه يشعر بالأسف لموت الطفل، لكن الجيش الإسرائيلي ليس مسؤولاً عن موته. ويكرر المراسل الزعم نفسه قائلاً إن الجيش الإسرائيلي لم يقتل الطفل، مضيفاً أن الجيش يقوم بالتدقيق في زوايا الفيلم كما في وجهة التصوير لمعرفة كيفية مقتل الصبي، ثم يضيف أن أطفالاً في الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر يرمون عادة أحجاراً على الجنود، وينهي تقريره بالإشارة إلى مقتل ثمانية أطفال حتى اليوم.

بعد أن بثّت "هيئة الإذاعة والتلفزيون

الإسرائيلية" أخيراً فيلم استشهاد الدرّة، فإنها حافظت على صدقيتها كمصدر موثوق به وشامل للمعلومات (لا يحتاج المشاهدون إلى الانتقال إلى مصادر أُخرى للاطلاع على مثل هذه الحوادث)، لكن عرضها إياه في تقرير قبل فترة قصيرة من نهاية النشرة، جعلها لا تعطي القصة حقها. وفي الواقع، فإن الأسباب التي أدت إلى ضم المقطع المصور إلى هذه النشرة الإخبارية يتم شرحها في مقدمة التقرير نفسه؛ لقد أصبح مستحيلاً عدم بثه بعدما ظهر على شبكات التلفزة حول العالم وبشكل متكرر خلال اليومين الماضيين. وهذه الاستراتيجيا في التعليق على تقارير الأخبار توفّر طريقة للتعامل مع المقطع المصور وتبرير عرضه في نشرة الأخبار المسائية لـ "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية". وهكذا، فإن الهيئة لم تشارك مشاهديها المقطع المصوّر لأنه جدير بالعرض ويتعلق باستشهاد طفل، بل لأن إخفاءه أصبح مستحيلاً. وهذا الأسلوب يبعد المشاهدين صراحة عن الاهتمام باستشهاد الدرّة كحادثة، كما أن إدارج عبارات مثل "يسمونه" التي تتضمن "آخر" (أي الفلسطينيين)، كوسيط بين الضحية والمشاهدين، يخفف أي شعور بالتعاطف كان يمكن لمقطع قتل الدرّة أن يثيره. ويمضي المراسل لتوضيح الصورة من خلال إدخال أسباب فرضية لحادثة القتل كي تبدو كما لو أنها حَتمية، وذلك من دون ربط أي تفصيلات معينة بالحادثة نفسها. إن الحلقة الموثوق بها لهذه التصاريح تُظهر الحادثة كما لو أنها واضحة وبسيطة ومقاربة بشكل شامل. وهذا بدا واضحاً من خلال عبارات: "لقد جاء لينضمّ إلى المتظاهرين"، و"أتى الوالد ليأخذ ابنه .."، كما أنهم يدعمون سردية تقود إلى الاستنتاج أن الصبي مسؤول عمّا أصابه، محوِّرين الانتباه بعيداً عن أي تورّط إسرائيلي في قتله.

فضلاً عن ذلك، فعندما ينفي ضابط في الجيش الإسرائيلي، وبشكل قاطع، وجود أي علاقة بين الجيش الإسرائيلي وقتل الدرّة، ثم يعلن أن زوايا المقطع المصوّر كلها سيتم التدقيق بها، فهو إنما يحاول أن يثبت أن الجيش مصدر موثوق به وغير منحاز، وأنه ليس مشاركاً في سلسلة الأحداث التي أدّت إلى استشهاد الدرّة. وفي الواقع، فإن العنصر الوحيد غير الموثوق به والذي يبرز من التقرير، هو الصورة نفسها التي يعد المسؤول "الموثوق به" بالتدقيق فيها، مستخدماً لغة تقنية حيادية (زوايا التصوير). وهكذا، يتم جذب انتباه المشاهدين بعيداً عن النتائج الإنسانية للحادثة، ونحو المسائل التقنية.

لكن، إذا استمر بعد هذا كله، بعض المشاهدين في الاعتقاد أن الجيش متورط في قتل الطفل، فإن أصبع الاتهام يوجه نحو الأطفال الفلسطينيين أنفسهم الذين "يقومون عادة برمي الحجارة على الجنود"، وبالتالي فإنه يجب عدم النظر إليهم كأبرياء في النهاية. وقد استُخدمت العبارة الأخيرة في التقرير (.. "قُتل ٨ أطفال لغاية اليوم") لدعم هذا الاتهام، ولتهميش أهمية استشهاد الدرّة أكثر فأكثر، من خلال الإشارة إلى أنها حادثة من عدة حوادث مؤسفة وقعت جرّاء الصراع.

٢ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠: عُرض التقرير نفسه الذي بُث قبل يوم في ١ تشرين الأول / أكتوبر من دون أي تعديلات، كما جرى عرضه قبل نهاية نشرة أخبار "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية". غير أنه في منتصف النشرة تقريباً، وخلال التحدث عن تراجع صورة

إسرائيل في العالم، فإن مذيع النشرة الإخبارية يذكر الحادثة، وأن محمّد الدرّة (وهذه المرة يلفظ اسمه بالطريقة الصحيحة) ربما يكون على الأرجح قُتل بنيران إسرائيلية. ويظهر أحد الجنرالات الإسرائيليين وهو يتساءل كيف يمكن ألاّ يكون أي جندي قد شاهد الولد؛ على اعتبار أن الجنود كانوا متمركزين في خمس نقاط مراقبة. ثم بعد ذلك يقول مقدّم النشرة إنه حتى رئيس الولايات المتحدة السيد كلينتون، أشار إلى الحادثة علناً، ويتم بث خطاب كلينتون بالكامل.

ومع أن "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" احتفظت بالموقف نفسه تجاه الحادثة من خلال إعادة عرض التقرير الإخباري نفسه الذي بُث قبل يوم ومن دون تعديل، إلاّ إنها أدرجت اعترافاً لمسؤول في الجيش الإسرائيلي بالمسؤولية المحتملة لقتل الطفل، لكن مع التركيز على كون الحادثة غريبة وغير مفهومة: لو كان صحيحاً أن جندياً قتل الصبي، فإنه يجب أن يكون هناك ظروف مخففة، أو لا بد من أنه خرق بروتوكولاً معيناً، وإلاّ فإنه لا يمكن لضابط الجيش الإسرائيلي إدراك كيفية وقوع الحادث. وتم إظهار وجهة النظر هذه من خلال عبارة "كيف لم يتمكن الجندي من مشاهدته"، كما لو أنهم (الجنود) لو شاهدوه لما أقدموا على قتله. وهذه الاستراتيجيا البلاغية التي من المفروض أن يصار إلى متابعتها لاحقاً، لتصوير حادثة القتل على أنها غير استثنائية (الدرّة كواحد من ثمانية أطفال قُتلوا لغاية اليوم)، توقفت عند هذا الحد. وباختصار، يبرز الارتباك والتناقض كعلامة رافقت تغطية "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" للحادثة.

٤ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠: تضمّن برنامج إخباري بعنوان "دوكوميديا" (*"Documedia"*)، ويتمحور حول المسائل الإعلامية، تقريراً عن حادثة الدرّة. ويبدأ التقرير بما يظهر أنها مشاهد من الأرشيف لعدد من الفلسطينيين يقفون إلى جانب حائط ويختبئون خلف حواجز وهم يرمون حجارة: "الفلسطينيون يبحثون عن الإثارة، وهم يختبئون خلف الجدران والحواجز، وإلاّ، فماذا يفعل أب وابنه وهما مختبئان خلف ذلك العائق؟ بالتأكيد لم يأتيا مصادفة إلى منطقة حربية." ويتابع المعلق تقريره بصوته، بينما يستمر بثّ صور الدرّة ووالده وهما جاثيان بالقرب من الحائط، والوالد يرفع يده: "الطفل مذعور، والوالد يبكي ويرفع أصبعه في اتجاه الجنود." وقبل نهاية المشهد تتوقف الصورة بعدما قُتل الصبي وأصيب والده بجروح. ويدلي المعلّق بملاحظاته بشأن هذا المشهد الأخير: "وهذه كانت نهاية القصة.."

وبعد هذا التقرير، يُعرض تقرير آخر عن والد أحد الجنود الإسرائيليين يخبر فيه عن ابنه الذي ضربه الفلسطينيون قبل عامَين، بالقرب من معسكر إسرائيلي في منطقة رام الله. وتُظهر المشاهد المصورة من الأرشيف عملية الضرب، إذ بدا أن صحافيين كانوا موجودين في أثنائها ويصورون ما يجري.

وبعد انتهاء التقرير، يظهر والد الجندي المضروب في البرنامج كضيف، وكان يلقي اللوم على الصحافيين الذين شاهدوا ابنه وهو يتعرض للضرب من دون أن يتدخلوا. ويدور النقاش لاحقاً بشأن الإعلام ووجوده في أثناء ظروف تكون فيها حياة أحدهم عرضة للخطر، وعمّا إذا كان عملاً أخلاقياً تصويرُ مثل هذه الحوادث.

وهنا، تلجأ "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" إلى محاولة جديدة للتعامل مع الحادثة، في وقت استمرت في الاعتماد على استراتيجيا "التفاعل الوجهي" (انظر أعلاه)؛ فهي تعيد إحياء قصة حدثت قبل عامين من أجل تأطير حادثة الضحية الفلسطينية ضمن سردية أكبر للضحية إسرائيلية. وتُظهر المقارنة بين الحادثتين "أنهم" [الفلسطينيون] ارتكبوا أعمالاً فظيعة "بحقنا"، وهنا يُدعى والد أحد "ضحايانا" إلى الوقوف أمام المشاهدين بمواجهة والد أحد "ضحاياهم". (وهذه المقاربة توحي بوجود تكافؤ وترابط بين حادثتين مختلفتين ظروفاً، وزماناً، ومكاناً: طفل ضحية في مقابل جندي؛ ضرب في مقابل قتل؛ الحاضر في مقابل الماضي قبل عامين؛ غزة في مقابل الضفة الغربية). وطبعاً لا ننسى الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى الصحافيين، بحيث توضع أخلاقياتهم المهنية موضع شك في محاولة لهز صدقية الإعلام والثقة به وما يعرضه على الشاشات. وفي الإجمال، وبعد الاعتراف إلى حد ما بمسؤولية الجيش الإسرائيلي عن القتل، فإن محاولة تقويض صدقية الصورة تستمر في منحى جديد.

٥ تشرين الأول / أكتور ٢٠٠٠: رواية إخبارية جديدة يتم بثّها في نهاية نشرة "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية"، وتنص على أن الطفل الذي جرى تصويره بصورته التي هزت العالم، توفي على الأرجح جرّاء نيران الجيش الإسرائيلي. وتضم الرواية مقابلة مع والد الطفل في أثناء معالجته في المستشفى، يقول فيها ما قاله ابنه له قبل وفاته مباشرة: "ربما ستأتي سيارة إسعاف. سأنتظر وأتحمل الألم إلى حينها." وتنتهي المقابلة بنداء الوالد إلى الجميع لوقف القتال، وبموقف عن لاعقلانية الحرب.

وفي خطوة تستند إلى التكافؤ بين الضحايا الإسرائيليين والفلسطينيين في رواية "دوكوميديا" التي بُثت قبل يوم، لجأت "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" إلى النداء الذي وجّهه والد الصبي الشهيد كوسيلة لتجزئة الملامة على العنف. فدعوته إلى وقف القتال تشير بطريقة غير مباشرة إلى مسؤولية الفلسطينيين عن الأحداث الأخيرة، عوضاً عن الجيش الإسرائيلي.

خلاصة

بصورة عامة، فإن التغطية الإعلامية لـ "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" تتضمن بشكل رئيسي نقل صورة ذاتية إيجابية من خلال الخطاب والمسار، كما في الخطاب النخبوي الذي عبّر عنه مسؤولون حكوميون وعسكريون من خلال اللجوء إلى طريقة عقلانية في المقاربة في أثناء المناقشة العامة للحادثة.

ومع ذلك، يمكن لأحدنا أن يكتشف أن تغطية "هيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية" لحادثة قتل الدرّة، تشتمل على تغيير مستمر للموقف من الحادثة، وهو تعبير عن تطوّر خطاب الحكومة الإسرائيلية بشأن مسألة قتل الأطفال. وكما يمكن ملاحظته أعلاه، فإن التغطية انتقلت من مرحلة النفي في اليوم الأول للحادثة، إلى عرض تبريرات متنوعة وتفسيرات لما يمكن أن يكون مسبباتها، ولما يتعلق بالفيلم المصور.

وفي الواقع، فإن دانيال دور (أحد المصادر)، في أثناء تحليله لتغطية اليوم الثاني من الانتفاضة، يقول إن الإعلام الإسرائيلي كان غير قادر على تغطية الأحداث اليومية بطريقة صحافية مهنية، لأنه اعتمد بشكل كبير على المعلومات التي كانت توفرها له الحكومة الإسرائيلية وكبار المسؤولين العسكريين الإسرائيليين.[٥]

غير أنه في خلال أسبوعين، بدأ يبرز خطاب إسرائيلي أكثر تماسكاً، يسمح للحكومة الإسرائيلية باتخاذ مزيد من الخطوات الموجهة إلى الرأي العام، وبأن تكون أكثر استعداداً للتعامل مع حوادث مستقبلية مثل حادثة الدرّة؛ وهذا الخطاب لا يوضح تصرفات الجيش الإسرائيلي والمواقف الحكومية الإسرائيلية فحسب، بل يبررها أيضاً.

III ـ تعيين فرق متحدثين بشأن مسألة قتل الأطفال

من خلال استراتيجيا تهدف بشكل رئيسي إلى تحسين صورة إسرائيل لدى الرأي العام عقب حادثة الدرّة، أطلق فريق من الناطقين المعيّنين رسمياً حملة دولية بشأن مسألة قتل الأطفال. وبدأت الحكومة الإسرائيلية ببناء شبكة واسعة للترويج لمصادر المعلومات الحكومية وتقديم تفسيرات إلى الإعلام الدولي. ويلخّص مقال نشرته صحيفة "جيروزالم بوست" الإسرائيلية الناطقة بالإنجليزية في ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠ هذا الوضع:

> استناداً إلى نحمان شاي، فإن الذي غيّر موقف الحكومة هو المقطع المصور الذي بُث في جميع أنحاء العالم عن محمد الدرّة البالغ من العمر ١٢ عاماً، والذي قُتل في أثناء تبادل لإطلاق النار في غزة بينما كان والده يحاول حمايته.
>
> فهذا الكابوس من العلاقات العامة دمّر السمعة الجيدة لإيهود باراك الذي كان يجهد لبنائها طوال أشهر، واستلزم تعيين شاي وفريق من الناطقين الرسميين.

وإلى جانب تعيين فريق من الناطقين تحت إشراف نحمان شاي، فإن الحكومة الإسرائيلية أوفدت شمعون بيرس ـ وزير التنمية الإقليمية في حينه ـ في زيارة رسمية لأوروبا لشرح موقف إسرائيل،[٦] كما رافق فريق آخر من الناطقين الرسميين الوفد الإسرائيلي إلى قمة شرم الشيخ بهدف الترويج لصورة إسرائيل. وجاء في صحيفة "معاريف" الإسرائيلية، في مقالة نُشرت في ١٦ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠ بعنوان "جيش من الناطقين الإسرائيليين سيحتل شرم الشيخ"، أن هدف هذا "الجيش" هو العمل والاستجابة في الوقت الحقيقي، من خلال مختلف الشبكات الإخبارية العالمية، لتوضيح الموقف الإسرائيلي.[٧]

والناطقون الذين تولوا ترويج هذه المزاعم كانوا من الخبراء بالحروب وبالتعامل مع الإعلام في زمن الحرب؛

فشاي، على سبيل المثال، الذي عُيّن ناطقاً رسمياً باسم رئيس الحكومة، خدم كناطق باسم الجيش الإسرائيلي خلال حرب الخليج في سنة ١٩٩١.[٨] بكلمات أُخرى، إن أولئك الذين قدّمهم الإسرائيليون والإعلام الغربي على أنهم محللون ومصادر معلومات موثوق بهم، كان لديهم علاقات وثيقة بالجيش الإسرائيلي والحكومة الإسرائيلية، وكانوا جزءاً لا يتجزأ من النخبة القوية، وهم لا يمثلون وجهة نظر النخبة الإسرائيلية فحسب، بل يتمتعون بقدرة أكبر على التواصل مع الإعلام، وبمصادر المعلومات المميزة.[٩] وبالتالي، فإن خطابهم هو مصدر للقوة منظم ومؤسساتي، يمكنهم من خلاله اختيار الموضوعات لمناقشتها، مع موضعة "الأنا" و"الآخر" في علاقات معينة، وتقديم فرضيات يجب أن تكون موضع قبول من المستمعين كي يكون هذا الخطاب مفهوماً. وهكذا، عيّنت الحكومة الناطقين مزودين بقوتها وسلطتها، ومجهزين بشكل كامل بتكتيكات الدفاع التي يمكنها أن تساعدهم في مهمتهم كي يبدوا ديمقراطيين وإنسانيين ومتسامحين، وخصوصاً عندما تكون هذه الأخلاقيات المدنية هدفاً للشكوك والهجمات جرّاء قتل الأطفال.[١٠]

في الإجمال، انطلق عمل هؤلاء الناطقين من موقع قوة في مواجهة الفلسطينيين، فسيطروا على السياقات التي تبيّن وجهة النظر الإسرائيلية، واستعانوا بالمؤتمرات الصحافية التي يمكنهم عبرها ترويج مزاعمهم بسهولة وفاعلية لعدد من الإعلاميين المحترفين، وذلك في ابتعاد واضح عن منطقة العمليات الحربية ـ الأراضي الفلسطينية المحتلة. ومن خلال هذا السياق المعتاد، سمع الصحافيون من المسؤولين الإسرائيليين ما بدا أنها مزاعم منطقية وتفسيرية لطبيعة المجتمع الفلسطيني وعلاقته بالعنف السائد. من سياقات كهذه، مضت الحكومة الإسرائيلية في تقديم نفسها على أنها ثقافياً مثل الصحافيين الغربيين، تعمل ضمن عالم أخلاقي يتشارك فيه المتحدثون والمتلقون الأرضية الثقافية والمهنية نفسها، كما أن إسرائيل وضعت نفسها ضمن العالم المتحضر، فمن خلال إظهار تمدّن عسكرييها، صوّرت نفسها على أنها "بطلة" قصة الانتفاضة، التي تواجه أخلاقياً ومنطقياً عدم عقلانية "الآخر"، أي الفلسطينيين الذين كانت قيَمهم وتصرفاتهم غريبة كلياً عن العالم المتحضر. وهكذا، فإن الفلسطينيين، ومن خلال التقديم السلبي لهم ولتصرفاتهم، تحولوا بشكل طبيعي إلى الفريق الذي يتحمل الملامة عن العنف المستقبلي الذي سيعانيه الأطفال.

وباستخدام استراتيجيات خطابية في النقاشات، وتدفق منطقي للغة، وتقديم حجج مجهزة ومبنية بشكل جيد في مؤتمرات صحافية واجتماعات رسمية ومراكز إعلامية، عوضاً عن تقارير ميدانية وسط واقع احتلال مدجج بالأسلحة والجيبات المصفحة والدبابات، بدأ فريق الناطقين الإسرائيليين بترويج مزاعم أن الفلسطينيين يرسلون أطفالهم إلى الموت لأسباب دعائية، وأنهم يستخدمون أطفالهم كدروع بشرية، وأن الأمهات الفلسطينيات يشجّعن أولادهن على الخروج، وعلى أن يكونوا عرضة للقتل. هذا الموجز لخّصه النقيب ناتان غولان، الناطق الرسمي للجيش الإسرائيلي، والذي نقلت عنه صحيفة "سانت بيترسبورغ تايمز" في ١٨ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠ قوله:

> إنه لأمر مأسوي أن يسقط طفل في هذا العنف، لكن لا يوجد أي سبب يجعل الجيش الإسرائيلي يطلق

رصاصة واحدة إن لم يكن هناك عنف.. كل ما نحاول أن نقوله هو "أوقفوا هذا التحريض المتواصل على العنف." نحن نتعامل مع حالة يتم فيها استخدام الأطفال بشكل معيب من خلال وضعهم على الجبهات الأمامية حيث يمكن أن يُقتلوا، أو يشوَّهوا، أو يصابوا بجروح.. وإذا قُتل صبي فذلك يوفر للفلسطينيين كثيراً من النقاط الدعائية.

ومن خلال هذا الزعم، أسقطت الحكومة الإسرائيلية أي محاولات لنفي المسؤولية عن إطلاق النار، والتي كان مقدراً لها أن تفشل في جميع الأحوال منذ البداية، واستخدمت عوضاً عن ذلك، خطاباً من الحب العائلي كي تصوّر نفسها على أنها مجتمع حضاري وديمقراطي مشابه للدول الغربية التي كانت تخاطبها. وفي المقابل، كان يتم تصوير الفلسطينيين على أنهم مختلفون أساساً عن الغرب: فهم غير مبالين، ومبغضون، ويعتبرون ارتباطهم بالصراع العنفي أولوية تتقدم على العيش الكريم، أو حتى على حياة أولادهم. وللمفارقة، نجحت الحكومة الإسرائيلية من خلال هذا الخطاب في فتح ما بدا ظاهرياً أنه نقاش منطقي بشأن ما كان يمكن في المقابل أن يكون غير مقبول إطلاقاً: **قتل الأطفال**.

وسرعان ما انتقل الزعم أن الفلسطينيين يستخدمون أطفالهم كدروع بشرية، وأن الأمهات الفلسطينيات يرسلن أطفالهن إلى الموت، من المسؤولين الإسرائيليين إلى وسائل الإعلام التي كررت هذه المزاعم في كل مرة كان يتعرض طفل فلسطيني للقتل. وحتى الوجوه الإعلامية المعروفة والمرتبطة بيسار الوسط الإسرائيلي مثل شالوم يروشالمي، وداني مرغليت، وعينات غوف، بدأت تكرار هذه المزاعم ضد الفلسطينيين، الأمر الذي أدى بالنتيجة إلى اكتسابها صدقية لدى غير الإسرائيليين، وخصوصاً بين وسائل الإعلام الغربية.

والسؤال الآن هو: كيف كانت ردة فعل وسائل الإعلام الغربية، والفلسطينيين على هذه المزاعم؟

IV ـ ردة فعل الإعلام الغربي على المزاعم الإسرائيلية

لم تكن قد مضت بضعة أيام على ترويج مزاعم أن الفلسطينيين يستخدمون أولادهم كدروع بشرية، وأن الأمهات الفلسطينيات يرسلن أطفالهن إلى الموت، حتى أصبحت مسألة قتل الأطفال الفلسطينيين قضية مهمة بالنسبة إلى الإعلام الغربي، وبدأت شبكات إعلام غربية بالتحقيق في صدقية هذه المزاعم. ومن الشبكات التي أتطرق إليها هنا شبكة "التلفزيون الوطني السويدي"، واختياري هذه الشبكة تحديداً، جاء نتيجة التأثير الرئيسي لتقريرها بشأن هذه المسألة كما سأبين لاحقاً.

١٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠: يبدأ التقرير بلقطة قريبة لوجه جثة صبي يحمله رجال فلسطينيون، بينما المعلق يقول: "بيت لحم تدفن مؤيد جواريش الصبي البالغ من العمر ١٣ عاماً. آلاف المشيعين يدفنون مرة جديدة صبياً قُتل برصاص إسرائيلي"، ثم تظهر لقطات لمقاتلين فلسطينيين مسلحين. ويواصل المعلق قائلاً: " هؤلاء هم المقاتلون الذين يتباهون بسلاحهم في مسيرة، وبينهم شبان غاضبون مستعدون للموت من أجل فلسطين."

والجملة الأخيرة تترافق مع صورة رجل فلسطيني يهتف بالعربية، وبعدها صورة نساء فلسطينيات يشاركن في الجنازة. ويقول المعلق: "في الخلف يوجد النساء، أمهات هؤلاء الصبية الذين يدينون قمة شرم الشيخ، وهن يهتفن لأبنائهن قائلات: 'ما في خوف، الحجر صار كلاشينكوف'." وبعد أن تظهر صورة مقربة لامرأة فلسطينية تسير صامتة، يقول المعلق: "في الخلف تسير أم أحمد مع ابنها أحمد البالغ من العمر ١٣ عاماً. أحمد يرمي أيضاً حجارة على الجنود الإسرائيليين، إلاّ إنه اليوم يشارك في دفن صديقه المفضل مؤيد جواريش، ونحن نلحق بهما وهما في طريقهما لتقديم واجب العزاء إلى والدة جواريش في منزلها." وتنتقل الصورة إلى أم أحمد وهي تعزّي عائلة الفقيد. ويتابع المعلق: "لكن أم أحمد ليست حزينة لفقدان جارتها ابنها"، ثم تظهر أم أحمد على الشاشة وهي تقول: "إنه شعور صعب جداً، لكن علينا التضحية. ابن جارتي مثل ابني؛ إنه ابني مثلما هو ابن الأمة بأكملها. إنه شعور صعب لكل أم فلسطينية أن تفقد ابنها، لكننا نشعر بالسعادة أيضاً لتقديم أبنائنا فداء لأمتنا، فداء لفلسطين."

بعد ذلك تعرض الشبكة فيلماً قصيراً يُظهر عدداً قليلاً من الأولاد والنساء وهم يسيرون معاً، بينما المعلق يقول: "بالنسبة إليّ، مستحيل أن أفهم ما يجري، كما هو مستحيل بالنسبة إلى النساء السويديات. وعندما نطرح هذا السؤال الحيوي 'كيف تستطيع أم أن تقبل ذلك؟' يحدث التالي": تظهر أم أحمد بعد سماعها رشقات من الرصاص، وعلى وجهها علامات القلق. ويتابع المعلق تقريره وفي الخلفية صورة دبابات إسرائيلية، "في شرم الشيخ توصلوا إلى وقف لإطلاق النار، لكن هنا خارج بيت لحم، يستمر إطلاق الرصاص، والجيش الإسرائيلي ما زال يطلق النيران على فلسطينيين يسيرون على طريق يستخدمها المستوطنون الإسرائيليون، وحيث أصيب عدد من جنود الجيش الإسرائيلي بجروح جرّاء تبادل لإطلاق النار." ثم تنتقل الصورة إلى أحمد وهو يسير، ويقول المعلق: "بينما أحمد محمي بالجدار، هاهو يشرح معنى الرغبة في التضحية، في حين أن والدته تناشد الأمهات السويديات كي يفهمنها." تظهر أم أحمد وهي تقول: "صعب جداً، لكن الأمهات سيضحين بأبنائهن إذا ما كن يعشن في مثل ظروفنا. إنه صعب قليلاً لكن علينا فعل ذلك. على الجميع أن يشارك: الأمهات، الأطفال والمسنّون. على الجميع المشاركة في هذه الانتفاضة وفي القتال ضد إسرائيل." وعلى خلفية صورة أطفال يرمون الحجارة، يتابع المعلق: "أحمد الذي فقد صديقه المفضل لا يتردد في الخروج للمواجهة مجدداً." ثم يظهر أحمد وهو يعرض وجهة نظره: "علينا حماية بلدنا، القدس

لنا، ولا يمكننا أن نعيش من دونها." وتتابع والدته: "الأم تخاف دائماً. تخاف دائماً على ابنها. نعم هناك خوف، الأمر صعب، لكني أتوقع أن يخرج ابني ويصاب بجروح، وأن خبر استشهاده قد يأتيني، لقد تعودنا على ذلك. الشعب الفلسطيني اعتاد ذلك. إنه يعيش في حزن وألم مستمرين. لم نكن يوماً سعداء. لم نواجه السعادة قط."

ويبدو جلياً في هذا التقرير أنه مهتم بالسؤال الذي يتجاوز الخبر المقصود تغطيته: قتل مؤيد جواريش الصبي البالغ من العمر ١٣ عاماً، إذ جرى استخدام مقتله لتوجيه سؤال محدد في التقرير: "هل تشجع الأمهات الفلسطينيات أولادهن على الموت؟" وهذه استراتيجيا معروفة في استجرار السؤال. وباللجوء إلى مثل هذه الاستراتيجيا، فإن التقرير يبني خطاباً محدداً، مدعوماً بمجموعة محددة من الصور من أجل إيصال خطاب مرسوم مسبقاً قد يكون أو لا يكون مرتبطاً بالأحداث التي وقعت: فجأة، وفي خطوة داعمة للتركيز على الأمهات الفلسطينيات السيئات، يرى المشاهدون نساء يشاركن في الجنازات، بينما حتى هذه اللحظة لم يكن يشارك في الجنازات الفلسطينية سوى الرجال. علاوة على ذلك، يجري تقديم بعض الأشخاص كما لو أنهم متورطون في الحادثة، في حين أنهم في الحقيقة لا دور لهم؛ وفي هذه الحالة، تبدو جارة جواريش، عوضاً عن والدته، أو والده، أو أفراد آخرين من عائلته، كأنها الشخصية الرئيسية في التقرير. وفي الوقت نفسه، لا يشير التقرير إلى أنه يحاول التدقيق في المزاعم أن الأمهات الفلسطينيات يرسلن أولادهن إلى الموت، والذي روّجت له السلطات الإسرائيلية، كما أن أي شخص من الجيش الإسرائيلي (المسؤول عن مقتل جواريش) لا يشارك في التقرير. وبذلك، يُبعد التقرير انتباه المشاهدين عن الجيش الإسرائيلي في اتجاه الفلسطينيين أنفسهم الذين ينتحبون على خسارة حياة طفل بسبب العنف الذي مارسه الجيش الإسرائيلي. وأكثر من ذلك، فإن السؤال الذي كان يفترض أن يكون موضوع النقاش، وهو: "كيف يمكن لأحد قتل طفل؟" تطور ليصبح: "كيف يمكن لأحد أن يقبل بقتل ابنه؟" وهكذا، تم تحميل الأمهات الفلسطينيات مسؤولية القبول باستشهاد أطفالهن، وفي هذه الحالة، مؤيد جواريش، عوضاً عن الجيش الإسرائيلي لقتلهم.

وفي تعزيز هذه الحجة، يستند التقرير إلى فرضيات مسبقة ومزاعم غير محققة تشكّل نماذج لاقتراحات فردية ـ اقتراح يُفترض به أنه حقيقي، كي يكون الاقتراح الآخر ذات معنى، في حين أن الاقتراحين غير متصلين بالموضوع: الفلسطينيون الذين يخشون ويتوقعون استشهاد أحد أفراد عائلاتهم جرّاء احتلال يجعل جميع مَن يعيشون في ظله عرضة للعنف والقتل (وفي الواقع لهذا السبب انخرط الفلسطينيون في المقاومة)، والذي أدى أيضاً بطريقة ما إلى تعايشهم معه، يحمَّلون مسؤولية مثل هذه الوفيات. ولأن الزعم الإسرائيلي بطبيعة الحال لم يتم إثبات عكسه، فقد جرى تقديمه ضمناً على أنه حقيقي.

إن التحامل الذي يأتي به هذا التقرير (الأمهات الفلسطينيات يرسلن أولادهن إلى موتهم) أدى أيضاً إلى التخلي عن الدور التقليدي للتقرير. فعوضاً عن ممارسة الدور الطبيعي لجمع المعلومات من وجهتَي نظر متضاربتين بشأن مسألة أو قضية، ظهرت في هذا التقرير امرأة فلسطينية،

جارة الصبي الشهيد، لتقديم صورة عن جميع الأمهات الفلسطينيات، وهي ممارسة مختزلة غالباً ما تكون سمة التغطية الغربية لقضايا خارج السياقات الغربية، كما لو أن تقديم وجهات نظر مختلفة بشأن موضوع ما، أمر لا يوجد إلاّ في الغرب. وفي هذه الحالة تحديداً، قد يتساءل المرء عن سبب عدم إجراء مقابلة مع والدة جواريش، إذ ربما لو سُئلت إن كانت أرسلت ابنها إلى حتفه، لكانت كشفت في الواقع أن مؤيد لم يكن في منطقة خطر عندما استشهد، ولم يكن مشاركاً في رمي الحجارة، إلاّ إنه قُتل بواسطة قناص إسرائيلي عندما كان عائداً من مدرسته في مسقط رأسه بيت لحم (حتى لو أن جواريش كان يرمي حجارة على قوات الاحتلال الإسرائيلي، لكان استشهاده مأساة تستحق التحقيق في صلاحية التكتيكات العسكرية المستخدمة لقمع الانتفاضة).

في النتيجة، إن وضع الخبر في إطار التحقيق في صدقية الزعم الإسرائيلي أن الأمهات الفلسطينيات يرسلن أولادهن إلى الموت، وكذلك الطريقة التي تم فيها إجراء هذا التحقيق، يحقّران أساساً الأمهات الفلسطينيات في أعين المشاهدين. وكما قالت إحدى الامهات، فإن مثل هذه التقارير يُظهر الفلسطينيات كمخلوقات يفتقدن حتى غريزة الحيوانات البديهية للحب وحماية أولادهن.

V ـ خاتمة

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت آثار المزاعَم الإسرائيلية بشأن الأمهات الفلسطينيات تحظى بالقبول على نطاق واسع من دون طرح أي تساؤل. فبعد أقل من شهر على بدء الانتفاضة الثانية، وخلال اجتماع لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة، انتقدت ملكة السويد سيلفيا علناً الأهالي الفلسطينيين بالإساءة إلى أولادهم في صراعهم ضد إسرائيل. ومع إعادة تأكيد ملكة السويد الزعم بشأن الأبوة الفلسطينية السيئة، بدأ الإعلام الإسرائيلي مناقشة المسألة بحرية وثقة أكبر. وفي مقالة نشرتها صحيفة "جيروزالم بوست" في ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٠ بعنوان "التضحية بالأطفال وثنية فلسطينية"، قال كاتب المقالة:

> بعد تصديق البروباغاندا الفلسطينية في البداية، بدأت القوى الأخلاقية حول العالم تواجه هذا الواقع المرير. كانت ملكة السويد سيلفيا بين أصوات الضمائر الأولى خارج إسرائيل التي تثير هذه المسألة، وفي اجتماع منظمة الأمم المتحدة للطفولة، انتقدت بشدة الأهالي الفلسطينيين لإساءتهم إلى أطفالهم.

في الواقع، وبعد هذا التصريح العلني، انتشرت المزاعم الإسرائيلية في وسائل الإعلام بشكل متواصل، وحلّت محل الارتباك الذي ميّز التغطية الإخبارية بشأن قتل الأطفال خلال الأسابيع الأولى من الانتفاضة (مراجعة تصريح الناطق الرسمي للجيش الإسرائيلي أعلاه).

من ناحية أُخرى، لم يفقد الفلسطينيون أولادهم فحسب، بل حقهم في الاعتراض على مقتلهم أيضاً، لأنه استناداً إلى الخطاب السائد، كان عليهم أن يلوموا أنفسهم، ولا أحد غيرهم.

وفي هذه الأثناء، استمرت عمليات قتل الأطفال الفلسطينيين، واستمر اعتبارها مسألة عادية. لم يعد الموت بحاجة إلى الإخفاء أو إلى أن يضع قناعاً لنفسه، ولم تعد

الحكومة الإسرائيلية والمسؤولون بحاجة إلى نفي وقوعه، إذ لم يعد عليهم الإجابة عن أسئلة بشأن كيف حدث القتل ولماذا، وإنما أصبح من المتوقع أن يجيب عن ذلك الفلسطينيون، وخصوصاً الأمهات الفلسطينيات.

وفي الواقع، تحولت إسرائيل والعالم الغربي إلى الجهة التي تهتم حقيقة بهؤلاء الأطفال الفلسطينيين، وليس أهاليهم. والدعوات التي وجهتها إسرائيل والعالم الغربي إلى الفلسطينيين ـ لحماية أولادهم خلال القتال ـ تبرز في هذه الحالة كما لو أنها **لمصلحة** الأطفال الفلسطينيين، والشعب الفلسطيني بصورة عامة.

وكما يقول فان دايك، فإن الآثار المترتبة على عبارة "من أجل مصلحتهم" التكتيكية، "ليست من أجل لوم الضحايا فحسب، بل لمعاقبتهم أيضاً لكونهم ضحايا في المقام الأول."[١١] ■

المصادر

١ **Robin Brown, "Clausewitz in the Age of CNN: Rethinking the Military-Media Relationship", in *Framing Terrorism: The News Media, the Government, and the Public*, edited by Pippa Norris, Montague Kern and Marion Just (London: Routledge, 2003), pp. 43-58.**

٢ **المكتب المركزي الفلسطيني للإحصاء، ٢٠٠١.**

٣ **Teun Adrianus Van Dijk, Stella Ting-Toomey, Geneva Smitherman and Denise Troutman, "Discourse, Ethnicity, Culture, and Racism", in *Discourse as Social Interaction*, edited by Teun A. Van Dijk (London: Sage Publications, 2000), pp. 160-161, 165.**

٤ **Teun Adrianus Van Dijk, *Elite Discourse and Racism* (New York: Sage Publications, 1993), p. 99.**

٥ **Daniel Dor, *Newspapers under the Influence* (Tel Aviv: Babel Publishing house, 2001), p. 69 (Hebrew).**

ونشأت علاقات مماثلة ما بين وسائل الإعلام والجيش في إبّان حرب الولايات المتحدة على العراق، من خلال تقديم تقارير ملغومة.

٦ **من المهم ذكر أن تعيين بيرس لمثل هذه المهمة لم يكن مصادفة، وإنما جاء بناء على ما يمثله بالنسبة إلى العالم الغربي، كرجل سلام، وهي النظرة التي تكرست بصورة خاصة بعد تسلمه جائزة نوبل للسلام في سنة ١٩٩٤.**

٧ **Dor, op.cit., p. 255.**

٨ **للمزيد عن شاي، انظر: Ibid., p. 260.**

٩ لقد اتخذت الحكومة البريطانية خطوة مماثلة خلال احتلالها إيرلندا الشمالية. وللمزيد انظر:
David Miller, "The Northern Ireland Information Service and the Media: Aims, Strategy, Tactics", in *Getting the Message: News, Truth and Power*, edited by John Eldridge (London: Routledge,1993), p. 86.

١٠ في الوقت الذي كانت الحكومة الإسرائيلية تواصل حملتها، كانت جهود تُبذل لنفي المسؤولية عن موت الدرة، وخصوصاً أن إسرائيل لم تر أن من الملائم الاعتراف بمسؤوليتها عن الحادث، وكانت لا تزال تبحث عن وسيلة للوم الفلسطينيين بشأنها. وهذا يفسر لماذا، وبعد أسابيع قليلة من إعلان إسرائيل أن جنودها "على الأرجح" كانوا مسؤولين عن إطلاق الرصاصات التي قتلت الدرة، عمد الجيش الإسرائيلي إلى إزالة نقطة التفتيش التي أُطلقت النيران منها، وحيث كان الجنود متموضعين، في محاولة لبرهنة أنه ليس لهم أي صلة بالحادث. وقالت صحيفة "هآرتس" إن الجيش الإسرائيلي أعاد تركيب مسرح الجريمة للتحقق من أسبابها. وكانت تُسمع أيضاً مزاعم من طرف المسؤولين الإسرائيليين أن الفلسطينيين دبروا كل شيء من أجل الحصول على التعاطف الدولي، وأنهم مسرحوا مسألة الموت لأهداف دعائية. لمزيد بشأن هذا الموضوع، وللاطلاع على التغطية الصحافية الإسرائيلية لقضية الدرة، انظر:
Dor, op.cit., pp. 121-126.

١١ **Van Dijk, *Elite Discourse and Racism*, op.cit., p. 96.**

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دراسات في الدين والتربية وفلسطين والنهضة
تكريماً للدكتور هشام نشّابه

تحرير: محمود سويد وماهر الشريف

٣٢٩ صفحة ١٢ دولاراً